جامعة باجي مختار. عنابة
كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم اللّغة العربية وآدابها

محاضرات الأدب الجزائري المكتوب بالأجنبية

المستوى: ماستر 1
التخصص: أدب حديث ومعاصر
السّداسي: الثاني
الأفواج: 2/1

أستاذة المادّة: فتيحة بركات

السنة الجامعية: 2020/2019

المحاضرة: الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية وإشكالية اللغة

شكّل الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية ظاهرة أدبية متميّزة شغلت أقلام النقاد الغربيين، وطرحت إشكالية الهوية والانتماء، فما يثير الانتباه اهتمام النقد الغربي الكبير والمتزايد بهذه الظاهرة، في حين ظل الاهتمام بها هزيلا على مستوى التلقي النقدي العربي.

انبثقت النصوص الأدبية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية من قلب المركز الغربي، وبتأثير من النموذج الأدبي الغربي لكنها سعت إلى تجاوزه، وراحت تؤسّس فرادتها ومغايرتها. كما راحت تنهل موضوعاتها وصورها من الجغرافيا المحلية وتستثمر التراث المحلي، وهي في بحثها الدائم والمستمر عن هوية تتطوّر وتغتني بما برع فيه الأدباء الجزائريون من اشتغال على اللغة الفرنسية، وتشييد فضاءات تخييل مبتكرة مغايرة للنموذج الغربي تتغذى على الهجنة والمثاقفة، وتعبّر عن تجارب المنفيين والمهاجرين، وتعكس ثقافات المهمشين.

اختلفت الآراء ووجهات نظر النقاد حول هوية هذا الأدب، وحول أهميته ووظيفته وأهدافه مثلما حدث مع باقي الآداب الفرنكوفونية، ومن أهم الإشكاليات التي أثيرت حول هذا الأدب إشكالية اللغة، وما انبثق عنها من أسئلة منها ما تعلّق بهوية هذا الأدب، وأخرى ترتبط بإشكالية التلقي، وإشكالية النشر. فأسئلة اللغة التي كتب بها الأدب الجزائري الناطق بالفرنسية لاتزال تطرح بإلحاح، لماذا كتب الأدباء الجزائريون باللغة الفرنسية؟ ولمن كتبوا؟

1. موقف كتّاب جيل الروّاد من اللغة الفرنسية:

ينبئ موقف الكتاب المعبّرين باللغة الفرنسية عن الريبة في التعامل مع اللغة باعتبارها عتبة اغتراب، وهوما سنعاينه من خلال تصريحات بعض الكتاب. يقول كاتب ياسين:

« Jamais je n'ai cessé, même aux jours de succès près de l'institutrice, de ressentir au fond de moi cette seconde rupture du lien ombilical, cet exil intérieur qui ne rapprochait plus l'écolier de sa mère que pour les arracher, chaque foi un peu plus, au murmure du sangs, aux frémissements réprobateurs d'une langue bannie. Secrètement, d'un même accord, aussitôt brisé que conclu… Ainsi avais-je perdu tout à la fois ma mère et son langage, les seuls trésors inaliénables- et pourtant aliénés ! ».

Le polygoné étoilé.p181-182.

ترجمة الفكرة:

"لازمني دوما إحساس بداخلي بتلك القطيعة الثانية للحبل السري، حتى خلال نجاحاتي مع المعلّمة (الفرنسية)، إحساس بالنفي الداخلي الذي لا يقرّب التلميذ من أمّه إلا لينزعها شيئا فشيئا من سريان الدم، من ارتعاشات اللغة. لغة مبعدة سرا باتفاق بين الطرفين: اتفاق تم فسخه فور عقده... وبهذا أضعت أمي ولسانها في الوقت نفسه، الكنزان الوحيدان اللذان يستحيل استلابهما لكنهما استلبا". المضلع النجمي ص 181-182.

يعاني الكاتب الجزائري المعبّر باللغة الفرنسية من الاستلاب، فهو لا يملك أي شيء، لا لغته الأم التي لا تكتب(العامية)، ولا اللغة العربية الفصحى التي حرم منها، ولا حتى اللغة الفرنسية التي فرضت عليه، وامتلكها لكنها أجبرته على التخلي تدريجيا عن كل ما يملك فامتلكته. إذ يمنع التلاميذ من استعمال لغتهم الأم، بينما كانوا لا يفهمون الفرنسية.

يعترف الكتاب الجزائريون بأنّ الظرف التاريخي الطارئ الذي عرفته بلدان المغرب العربي بسبب الفعل الاستعماري هو الذي أجبرهم على الكتابة بلغة المستعمر، وأوجد ظاهرة الأدب الجزائري الفرنكفوني. فالفرنسية هي اللغة الوحيدة التي تعلّمها هؤلاء الأدباء في المدارس الفرنسية، فلم يكن لديهم الخيار من استعمالها، فهم ضحية التعليم الاستعماري الذي حرم أجيالا من أبناء المغرب العربي من تعلّم لغتهم. أما بعد استقلال الجزائر فإن الكتابة باللغة الفرنسية صارت خيارا واعيا مقصودا.

يقول مولود معمري في رده على عبارة "مالك حداد" الشهيرة «La langue française est mon exil»"اللغة الفرنسية هي منفاي" :"يجب أن لا نبكي ونحس بالضياع لأننا نكتب باللغة الفرنسية، فأنا شخصيا إذا كتبت باللغة الفرنسية، فإنني لا أشعر بأية عقدة نقص، فالكاتب مهما كانت اللغة التي يكتب بها إنما يقوم بعملية ترجمة لعواطفه وأفكاره هو". فمولود معمري يعتبر اللغة الفرنسية مكسبا امتلكه (هدية المستعمِر) والسلاح غير الدامي L'arme non sanglante الذي استعمله للتعبير عن تجربته.

وبهذا تباينت مواقف الكتاب من اللغة التي عبّروا بها، فمنهم من عدّها مكسبا، ومنهم من اعتبرها منفى. وكان لكل كاتب موقفه الخاص من اللغة؛ فتحوّل بوجدرة إلى الكتابة باللغة العربية بإصدار أول رواية بالعربية هي "التفكّك"1981، وتوقف مالك حدّاد عن الإبداع، كما توقّفمراد بوربون، ونبيل فارس، ومن الكتاب من لم يعد ينشر إلا نادرا.

ويرى بوربونأن "اللغة الفرنسية ليست ملكا خاصا للفرنسيين وليس سبيلها سبيل الملكية الخاصة، بل أية لغة إنما تكون ملكا لمن يسيطر عليها ويطوّعها للخلق الأدبي أو يعبر بها عن حقيقة ذاته القومية".كما أنّ اللغة الفرنسية مثّلت أداة التحرّر، والتواصل مع العالم، مما مكّن الكتاب من إيصال صوتهم إلى جمهور واسع، في حين أنّهم لو كتبوا بالعربية لما كانت كتاباتهم لتلقى النور بسبب الأمية التي تقف حاجزا بينهم وبين جمهورهم، من هنا كانت الكتابة الإبداعية متوجّهة إلى متلقي غربي بالدرجة الأولى، يضاف إلى هذا المستوى المعيشي الضعيف للأهالي، لأن التعليم الاستعماري لم يكن متاحا لكل الفئات. ملاحظة (للاستزادة في هذا يمكن للطالب العودة إلى مقال مالك حدّاد في مؤلّفه (Les Zéros tournent en rond.

2. طرق الاشتغال على اللغة في الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية

أكّدنا عند اطلاعنا على بعض النماذج (الأرض والدم) لمولود فرعون، والدار الكبيرة لمحمد ديب مثلا، على أنّه على الرغم من اللغة التي كتبت بها النصوص الروائية، إلى أننا بمجرّد ما نفتح الكتاب نصادف الأجواء المحلية، من خلال أسماء الشخصيات الجزائرية العربية، والفضاء المحلي: (الدشرة، الجبل، أسماء بعض المدن، مناطق من الصحراء الجزائرية)، فضلا عن العناصر الثقافية المحلية، وحضور المعجم العامي، وهو ما يشي بالروح المحلية الجزائرية المغاربية لهذه النصوص، وهو ما جعلها مغايرة للنموذج الروائي الاستعماري الفرنسي، في هذا يقول مالك حداد أنّ "هناك فرقا شاسعا بين غبريال أوديزيو و جان عميروش وبين روبليس و ديب، وجول روا و كاتب ياسين، و روجي كوريل وآيت جعفر بالرغم من حقيقة أنهم جميعا يكتبون باللغة الفرنسية"

لقد طوّع الكتاب لغة الآخر للتعبير عن تجربة الذات، مثلما أكده مولود معمري الذي يرى أنّ" اللغة الفرنسية تعبر عن ذاتنا أكثر مما تخوننا ".فضلا عن ذلك مكّنت اللغة الأجنبية الكتاب من إعادة بناء الفضاء الثقافي الخاص بهم عن طريق الكتابة، وفتح حوار مع ثقافة المستعمِر. وتجدر الإشارة إلى اختلاف التعامل مع اللغة في الكتابات المغاربية عموما، والجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية، على وجه الخصوص، فإذا كان سعي الكتاب إلى إثبات امتلاكهم للغة الفرنسية وتمكنهم من التعبير بها في كتاباتهم الأولى للآداب المختلفة واضحا، عن طريق كتابة أكاديمية قريبة جدا من التعبير الكتابي الفرنسي للقرن التاسع عشر، فإنهم بعدما تأتّى لهم ذلك ومارسوا الكتابة بحرية أكبر، أحسّوا بالحاجة إلى عرض لغاتهم الأصلية، وتقاليدهم المحلية عبر الكتابة باللغة الفرنسية؛ أي بدأوا الاشتغال على اللغة التي تعلّموها في المدارس الاستعمارية، وأخضعوها للتعبير عن ذاتهم و واقعهم؛ وهذا يعني أن الكتابة باللغة الفرنسية بدأت حتمية تاريخية، ثم تحوّلت إلى اختيار واع، خصوصا بعد الاستقلال السياسي. وبذلك شكّلت لغة المستعمِر الفرنسي مكسبا وغنيمة حرب بالنسبة لهؤلاء

الكتاب، فكان لزاما عليهم أن يحسنوا استثمار هذا المكسب بوعي، وأن ينقلوا أصواتهم عبر الخطاب الأدبي واللغوي الفرنسي مادامت الفرنسية هي بوابة العالمية، وعلى حد تعبير هنري كريا، "كانوا مدفوعين بالرغبة في أن يبرهنوا لأنفسهم أنّهم قادرون بدورهم على استعمار لغة المستعمِر."

3. خصائص لغة الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية:

امتاز الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسيةباعتباره ملتقى اللغات والثقافات بميزاتتتمثّل فيانصهار العنصر المحلي والعربي والفرنسي، ولغة النصوص الهجينة، والتنوّع اللغوي، وتضمين المعجم المحلي الخاص، والفضاء المحلي، وتتنوّع أساليب هذا التهجين من كاتب لآخروبذلك تنوّعت أساليب الاشتغال على اللغة في هذه النصوص الروائية. ويمكن معاينة هذه الظاهرة بقراءة مختلف الروايات الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية، خصوصا كتابات الروّاد.

لقد تشكّل الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية في وسط لغوي فرنسي لكنه عالج مهمات قومية، حيث أسهمت كتابات الجيل الأول من الكتاب الجزائريين في التعريف بالذات، وتعميق الإحساس بالوعي الوطني، وشكّلت مقاومة ثقافية، وتيارا مضادا لمحاولات الاستعمار طمس الهوية الجزائرية.

ورشة مالك حداد Malek Haddad

يتمثّل مشروع سيرة كاتب في التعريف بالكتاب الجزائريين الذين يكتبون باللغة الأجنبية، وبعد أن اختار كل طالب أو طالبة الكاتب وقرأ نصا من نصوصه (شعرية، مسرحية، أو روائية)بلغته الأصلية أو مترجما، يقدّم ترجمة وجيزة عن حياة المؤلّف الذي وقع عليه اختياره، وعناوين أشهر مؤلّفاته باللغة التي كتب بها حتى لا يقع في فوضى الترجمات المتعدّدة للنص الواحد، ثم يحلل النص بحسب التيمة المعالجة.

(يجد الطالب مرفقا بأسماء الكتاب الجزائريين اللذين يكتبون باللغة الأجنبية).

ونقدّم نموذجا عن هذا المشروع بقراءة في كتابات مالك حداد.

1. ترجمة وجيزة عن حياة مالك حداد:(1927-1978).

يقدّم الطالب ترجمة عن حياة الكاتب ليقف عند تأثير التعليم الاستعماري، والمرجعيات الغربية في تكوينه، وظهر أثرها في إبداعه، إقامته في مختلف الدول الأوروبية، التقائه بالأدباء الغربيين، المهام الوطنية التي كلّف بها، وكل ما أسهم في تشكيل وعيه بوصفه كاتبا ينتمي إلى بلد مستعمَر.

مؤلفاته:

نذكّر الطالب بكتابة العناوين باللغة الأجنبية بسبب اختلاف ترجمات العناوين.

Bibliographie :

– Le Malheur en danger (poèmes), La Nef de Paris, 1956.

– La Dernière impression (roman), 1958

– Je t'offrirai une gazelle (roman), 1959.

– L'Élève et la leçon (roman), 1960.

– Le Quai aux Fleurs ne répond plus (roman), 1961.

– Les Zéros tournent en rond (essai), Maspéro, 1961

– Écoute et je t'appelle (poèmes), Maspéro 1961

Algériennes, (album de photographies), Alger, Ministère de l'Information, 1967.

– Si Constantine m'était contée... série d'articles parus dans le journal An Nasr entre le 4 et le 14 janvier 1966.

2. خصائص الكتابة عند مالك حداد

من المرجعيات التي أسهمت في تكوين مالك حداد الأدب الغربي، والفرنسي تحديدا فقد تأثّر بالشعراء الفرنسيين من مثل:لويس أراغون L. Aragon، وبول فرلين P.Verlaine وشارل بودلير Baudlaire ، وسارترSartre، وبوردي Bourdet،

ومن أهم السمات الأسلوبية لكتابته ما يلي:

شعرية العناوين في رواياته.

العناية بجرس الكلمة.

الجمل القصيرة والبسيطة.

توظيف الرمز.

تكثيف الصورة.

تداخل السردي والشعري في رواياته.

التناص الذاتيلرواياته.

كتابة المحو، أو العناية بتوزيع البياض والسواد (الحضور والغياب).

تبيّن الخصائص الأسلوبية التي تسم كتابة مالك حداد شعرية لغته النثرية، ومغايرة رواياته للنص الروائي الكلاسيكي.

وهو ما نلاحظه على لغة الرواية التي اخترنا قراءتها.

3. قراءة في رواية: Je t'offrirai une gazelle لمالك حداد Malek Haddad صدرت سنة 1959

الرواية تم تقديمها للطلبة بصيغتها الورقية، وإن تعذّر على الطالب الحصول عليها فهي متوفّرة بصيغة رقمية وبترجمات عربية مختلفة. نؤكّد منذ البداية على أنّ الروايةيبدو فيها غموض وقد يجد الطالب صعوبة في تحليلها، ذلك ناتج عن تداخل مسارين سرديين، وتناوب قصتين اثنتين بطريقة إبداعية. لكن هذا ما يشكّل ميزة هذه الرواية، من حيث البنية والخصائص الفنية، ومن حيث المضمون، وكذا مختلف القيم الجمالية في الرواية التي نسعى إلى تقريبها للطالب في هذه القراءة.وركّزنا في قراءتنا هذه على رمز الغزالة وتأويله، وكذا العناية بالفضاء وعلاقته بالشخصية. ويمكن للطالب يمكنه تحليل أي نص يختاره بناء على التيمة المهيمنة فيه.

مقدمة:

سبق لنا أن توقفنا عند موقف مالك حداد من الكتابة باللغة الفرنسية، حيث اعتبرها منفى الكاتب وظرفا تاريخيا طارئا؛ يقول: "اللغة الفرنسية منفاي، لكن المنفى ليس دائما غير ذي جدوى؛ وأنا أدين بالكثير لهذه اللغة التي أتاحت لي خدمة بلدي الغالي."[i] يقصد اللغة الفرنسية. يكشف هذا التصريح عن موقف مالك

حدّاد من الكتابة باللغة الفرنسية؛ حيث اعتبر الكتابة بلغة المستعمر حتمية تاريخية، وكان يؤكّد في كل موقف على أنّ هذا الظرف الطارئ سيتغيّر بعد استقلال الجزائر، وحتما سيعود الكتاب الذين يعتبرهم جيلا انتقاليا، إلى الكتابة باللغة العربية التي استُلبت منهم؛ ونلفي الموقف نفسه عند حون ديجو Jean Déjeuفي تصريحه التالي: قلنا مرّات عدة، وما زلنا نقول بأنّ هذا الأدب محكوم عليه بالموت فتيا، وذلك بسبب جهود التعريب في المجتمعات المغاربية.[ii] ويؤكّد مالك: "ما يجب التأكيد عليه أنّ الكتاب من أصول عربية وبربرية حين كتبوا بالفرنسية فإنّهم عبّروا عن فكرة جزائرية خاصة، ما يعني أنّ النصوص الأدبية التي كتبها هؤلاء بلغة المستعمر تحمل الروح الجزائرية". وهو بذلك يؤكّد على انتماء هذا الأدب وعلى هويّته الجزائرية.

تتطلّب قراءة رواية مالك حدادJe t'offrirai une gazelle (مترجمة أو بلغتها الأصلية المتوفرة لدى الطالب) وعي الطالب بالخلفيات التي أنتجت فيها الرواية، ومن ثم ربط النص بالسياقات التاريخية، والثقافية والتجربة الاستعمارية التي أثّرت في إنتاجه، وفي ضوء هذه الخلفيات يحلّل الرواية بدءا بالعنوان.

1.3.-عنوان الرواية:

شكّل عنوان الروايةJe t'offrirai une gazelle بؤرة النص، ولازمة تكرّرت مرّات في المتن، وبوصف العنوان مفتاحا تأويليا، فإنه يفتح للقارئ باب التأويل، ويغريه ليشارك في العملية الإبداعية، ويصبح طرفا فيها. اختار المؤلّف عنوانا للمخطوط، وهو العنوان نفسه الذي اختاره مالك حداد لروايته؛ فيظهر جليا التقاطع بين المخطوط والرواية، ويكون الوعد نقطة هذا التقاطع، وتغدو الغزالة حلما منتظرا، وكتابة واعدة. تتخّذ الغزالة الموعودة تأويلات عدّة، تتنوّع بتعدّد الوعود المبرمة في الرواية، فهي الحرية التي يكافح الشعب الجزائري من أجلها، ومن اللافت أنّ الرواية صدرت سنة 1959 ما يعني أنّ الحلم بحريّة الوطن بدأ يكبر، هي البذرة الطيّبة التي يجلبها المؤلّف من اليأس ليهديها لشعبه، والغزالة هي المولود المنتظر، وهي العودة من المهجر بالغنيمة، وهي الابتسامة، وهي الأفق، وهي الرواية التي يرويها المخطوط، وهي الإبداع الذي يوحّد كل البشر. وينزع هذا العنوان نزعة شعرية مثلما هي كل عناوين روايات مالك حداد.[iii]

"سأهبك غزالة" ميثاق بين طرفين، وعد مؤكّد، تمثّل الهبة في غزالة، مخلوق جميل ارتبط بالحلم، وألهب خيال المستشرقين بما روي عن هذا المخلوق الأسطوري من حكايات، وتزيّنت به لوحاتهم الفنيّة. وربّما أراد الكاتب أن يعبّر عن الصحراء بعنصر دال لا ينفصل عنها، ومن ثم كانت الغزالة أكثر هذه الدوال إحالة على الصحراء.تتحوّل الصحراءفي غياب الغزلان إلى مكان موحش، فتغدو الغزالة سر وجود الصحراء، وبدونها تتحوّل هذه الأخيرة الى قفر خال، نقرأ في الرواية "وحدها الغزالة تكفي لتعمير الصحراء."[iv]ما يعني اقتران وجودها بوجود الصحراء ذاتها.

2.3.-فضاء الذات وفضاء الآخر:

أشرنا في موضوعات الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية إلى فضاء المنفى باعتباره انعكاسا لفضاء الذات ولصور الذاكرة، ونجد مثالا لهذا الموضوع في رواية مالك حداد. يعيش بطل سأهبك غزالة في باريس، ويستحضر زمن الوطن وعوالمه؛ من هنا تدور الأحداث في فضاءين إثنين: فضاء الذات المحلي، وفضاء المنفى. وبناء عليه يتأسّس نص "سأهبك غزالة" على مقابلة بين فضاء الذات الصحراوية وفضاء الآخر الفرنسي (الباريسي) عبر تقاطع مسارين سرديين، فتعرض الرواية أحداثا في باريس، في حين تدور أحداث القصة التي يرويها المؤلّف في الصحراء البعيدة هناك خلف البحار؛ وهي قصة ياميناتا سليلة الطاسيلي والأهقار التي

طلبت من مولاي أن يهبها غزالة، وتهبه هي طفلا. نتج عن تواتر الحكي بين الهنا والهناك اللاخطية التي ميّزت النص، وعبّرت عن تشظي الذات، وقلقها. وفي حين تم نشر الرواية، فإن قصة الصحراء ظلّت في الصمت، فما يحدث في ذلك الجزء من العالم المهمل يقبع خارج التاريخ، وحكايات الهامش يطويها النسيان. فقصة مولاي ويامبيناتا الأميرة الطارقية دفنتها رمال الصحراء، وأراد المؤلّف أن تذروها كتابته، وأن يكون الرمل شاهدا عليها "آه، لو ينطق الرمل"[v]؛ لكان نقل قصة عشق ووفاء، ولظلّ شاهدا على العشق والحياة. لكن أليس حريا بالرمل أن يحتفظ بالسر مثلما يحتفظ بالأجساد التي تعود إليه.

تحضر الصحراء بوصفها حلما يؤرّق الراوي، تغدو مجرّد حلم؛ "تهب الصحراء كل شيء، لكنها لا تعطي شيئا، وبمجرّد مغادرتنا لها نشك في كونها واقعا، بل نشك حتى في لاواقعيّتها."[vi] يبرز التركيز على تعميق الاحساس بقداسة الصحراء من خلال وسمها بالغموض، والصمت، والرهبة، والامتداد اللامتناهي، وسلطتها على الإنسان؛ ولشحن المكان بالمعاني الرمزية يتم الاشتغال على الذاكرة لبعث صور من العيش في الصحراء، وكذا من خلال التوحّد معها، في هذا يقول الراوي: "أجوب اليوم الصحراء. لقد جبتها مائتي مرّة من قبل. أعرفها عن ظهر قلب. أنا مثل الصحراء. كنت صحراء قبل أن أتعرّف إلى يامبيناتا."[vii] كما تحضر الصحراء بوصفها الجنة التي تحقّق السعادة لساكنيها، فتهب لعلي خادم مولاي ورفيقه في رحلاته السعادة والسلام، يعلّق الراوي على حال هذا الصحراوي: "علي سعيد في حياته. من النادر أن يكون الإنسان سعيدا بحياته. لكن علي يعيش سعادة كبيرة في الصحراء. في صحرائه. هو سعيد بجهده، وبتعبه. سعيد براتبه البخس. سعيد بثيابه الزرقاء الرثّة. سعيد بكوخه وسط الذباب. سيكون دوما سعيدا. (...) لم يهبه الله بيتا بماء صاف. لم يهبه الله كتبا تسلّيه (...) لكن الله وهبه الابتسامة الواسعة (...) هذه الابتسامة هي غزالة."[viii] في ضوء هذا المفهوم للسعادة يتحدّد المنفى بوصفه مصدرا لأقسى الآلام، وأشدّها تأثيرا على النفس، وتظل البلد/ اللغة الأم مصدر الأمن والحرية، هذا التثمين لفضاء الصحراء تقابله نظرة الآخر النفعية، يقول الراوي: "لم تكن الصحراء بالنسبة إلى صاحبنا قضية حياة أو موت، ولا مسألة نخيل ورمال، وإنما كانت تمثّل له منطقة من مناطق النفوذ. أم الغزال بالنسبة إليه ما هي إلا حيوان من ذوات الأربع قوائم."[ix]

تحضر الصحراء في رواية "سأهبك غزالة" باعتبارها الفضاء الظل لفضاء مغاير، فضاء المدن الفرنسية؛ وتتعيّن أرض الوطن الفضاء النقيض لأرض المهجر، من هنا تتأسس في النص العلاقات بين عالم أفسدته شرور البشر ولوّثته المدنية، وعالم نقي لايزال يحتفظ ببراءة الزمن الأوّل. من اللافت في الرواية نعت باريس بكل صفات البؤس، والموت، والفناء، في حين تستمر الحياة في الصحراء، "يموت مولاي لكن الحياة تبعث من جديد"[x]، وذلك عبر المولود الذي تنتظره يامبيناتا.

في ضوء هذا المعنى يرد لفظ الصحراء le Sahara للدلالة على الصحراء الحقيقية، في حين يرد لفظ Désertبمعنى القفر ليحيل على المدن الفرنسية، فباريس صحراء بدون غزلان. أما الغزالة في المنفى فهي "كلمة يتيمة، كلمة منفية، جائعة، ألم في القلب".[xi] تتحوّل الغزالة إلى أكذوبة، وزيف، فالغزلان

"لا تكون غزلانا إلا وهي حية"، تتحوّل الغزلان في فضاء المنفى إلى جثث محنّطة لا حياة فيها. فإذا كانت غزالة مولاي غزالة حقيقية، "تواصل الغزالة الحقيقية الجري حرة مثل نظرة، الغزالة هي الأفق."[xii] فإن الغزالة التي يقدّمها المؤلّف لجيزال ديروك "غزالة ميّتة، محشوة بالتبن." ما يعني اغتراب الغزالة مثل المؤلّف؛ ويأتي دور الذاكرة لتعويض الفقد، ففي المنفى يحتفظ المؤلّف بالرمل في علبة، يداعب حباته، يسائلها عن قصص من مرّوا

على الكثبان ذات مرة، أو طوتهم الرمال، يخرج هذه العلبة كلّما شدّه الحنين إلى صحرائه، وكأنّها شاهد على وجوده. فكل العناصر التي تغادر عالمها الأصلي تتحوّل في العالم الذي تنقل إليه إلى مجرّد استعارة، وتفقد الحياة؛ الغزالة المحشرة بالتبن التي تزيّن واجهة محل موريس، علبة الرمل، المخطوط الذي لم ولن ينشر؛ وقصة العشق التي لم ترو، كلها عناصر فاقدة للحياة، تتحوّل إلى جثث محنّطة بسبب اغترابها. وهو ما يشهد عليه الفن الإفريقي في متاحف العواصم الأوروبية، فما تم جمعه في هذه المتاحف مجرّد صور مشوّهة لهذا الفن الذي يفقد الكثير من قيمته، ومعانيه، وسحره بنقله من عالمه إلى عالم مغاير، وبتحنيطه؛يعترف أندري جيد بروعة الفن في هذه المجتمعات يقول: إنّني أحتقر أولئك الذين لا يعترفون بالجمال إلا في شكله المكتوب، والمؤوّل. المدهش في العرب أنّ الفنّ بالنسبة إليهم حياة؛ فهم يعيشون فنّهم، يتغنوّن به، وينشرونه في كل لحظة. فهم لا يأسروه بتثبيته، ولا يحنّطوه في إي عمل، وهذا هو السبب في غياب فنانين كبار،[xiii]ما تقدّم يحيل على غرائبية عالم الصحراء الذي بنته أفكار المستشرقين المزيفة عن الشرق. فما ارتسم في المخيال الغربي مجرّد صورة مشوّهة عن الشرق، وعن فضائه ممثلا في الصحراء، ذلك أن هذه الكتابات تفرغ فضاء الصحراء من عمقه الحضاري، وتختزله في المغامرة، والعراء، والتوحّش.بهذا المعنى تسهم كتابة مالك حداد في إعطاء معنى للوطن، ف" رغم ما قيل وما يقال فإنّ هذا الوطن موجود"[xiv] ففي كتابة الرواية كشف مساعي المستعمِر لطمس هوية الشعب المستعمر، ورد على تغييب البلد المستعمَر، وإسقاطه من السجلات الأدبية التاريخية والجغرافية، في هذا يقول الراوي "فليقولوا ما شاءوا، لكن هذا الوطن موجود" [xv] تلتزم الكتابة بوظيفة تأكيد الذات، وإثبات وجودها، ففي مرحلة ما قبل الثورة كان الاعتقاد السائد في الأوساط السياسية والثقافية، الفرنسية وحتى الجزائرية، بأنّ الجزائر فرنسية، ولم يكن يتصوّر أنّها ستحقّق استقلالها. لتأكيد هذا الوجود تتلى أسماء المدن والمناطق الصحراوية؛ زندار، غاو، غدامس، طرابلس، ورقلة، تمنراست، الجزائر..."، تسهم هذه الفضاءات المرجعية في تأصيل الكتابة والانغراس في الجذور، ويتم التركيز بصورة جلية على مرحلة ما قبل حضور المحتل إلى هذه المنطقة، أي العودة إلى الماضي للتدليل على الأحقية في امتلاك هذه الأرض، وعلى الهوية الثقافية للمجتمع الجزائري.

تتأسّس في النص مقابلة بين فضاء الذات وفضاء الآخر المستعمِر (فضاء المنفى)، ويتم التركيز على صور القحط في باريس، البلد الذي يموت من البرد، "كم هي ضخمة باريس، موحشة وواسعة."[xvi] تتحوّل باريس قلب العالم، وبلد الحضارة والأنوار في تلك الفترة إلى جحيم لا يطاق، فقط لكونها منفى الراوي، فالعيش في باريس بالنسبة إلى المنفيين معاناة وضياع؛ ف "الصحراء التي تتحدث عنها الكتابة الأدبية ليست بالضرورة مجرد صورة مطابقة للصحراء كفضاء طبيعي وسوسيوثقافي، بل قد تكون صورة متخيّلة يمتزج فيها الخيال والواقع، وإذا كان صحيحا أن هناك أعمالا أدبية حاولت بطابعها الوصفي والتوثيقي أن تنقل صحراء الواقع، وما تتميّز به من مناخ وتضاريس وعادات وأسلوب حياة، فإن هناك دوما صورا للصحراء في متخيّلنا الفردي كما الجماعي."[xvii] فباريس في نظر المؤلّف صحراء قاحلة، بما تسبّبه من معاناة وغربة للمنفيين، وما تبعثه فيهم من وحشة، كما أنّ حياة الكاتب في المنفى تشبه حياة كل المثقّفين، "كان رجلا يعاني الضياع وسط الحصى والمشاكل، محقّقا لامبالي بالحقائق التي يكتشفها."[xviii] يصوّر المؤلّف صعوبة العيش في أرض الغربة؛ حيث"يقف القفر حاجزا بينه وبين الآخرين، يحول بينه وبينهم إلى الأبد، وسرعان ما يتحول هذا القفر إلى بنايات، وإسفلت، وأجهزة إرسال، وحرب، وخوف، وأغاني مهشمة، وأثاث عصري.

لذا ابتكر الغزالة.
ابتدعها لغيره، أي أنّه ابتدعها لنفسه."[xix]
فتحيل الغزالة على الارتباط النفسي بالوطن.

مهما تحقّق من مدنية في الغرب فإنّ المجازر التي يشهدها العالم في العصر الحالي، والآلام التي يسبّبها الإنسان لأخيه الإنسان، وتخريب العالم بالحروب المستمرة وإحلال الفوضى فيه بدل السلم، تشهد على بربرية القرن العشرين والقرن الواحد والعشرين.ذلك أنّ تطوّر المجتمعات الحضاري المطّرد، والكوارث الإنسانية التي سببها الاستعمار قادت المجتمعات إلى مرحلة أكثر وحشيّة من المرحلة الأولية، ولاتزال الشعوب التي خضعت للاستعمار تعاني تبعات الحقبة الاستعمارية إلى الوقت الحالي. يعلّق الكاتب على لسان المؤلّف على علاقته ببلد المنفى باريس؛ يقول: "لا يوجد ألفي كيلومتر بين باريس والجزائر، بل يوجد أربع سنوات من الحرب." وفي هذا إصرار على عدم إمكانية اقتطاع التجربة الاستعمارية من الذات، كما أنّه لا يمكن محو التاريخ، وهنا يأتي دور الذاكرة.

3.3.-كتابة الهامش:

"سأهبك غزالة" خطاب إبداعي يتضمّن نقدا للمؤسّسة الثقافية الرسمية، ويلمّح إلى أزمة النشر التي تحاصر الإبداع، وتضيّق على المبدعين، وتصنّف الإبداع بحسب العرق، والجنس، والانتماء الجغرافي، فضلا عن الرقابة المفروضة على المبدع وعلى إبداعه بسبب الإقصاء الممارس عليه في المنفى، وهو ما يكرّس مركزية الغرب، وهو ما نعاينه من خلال عدم ذكر اسم المؤلّف على غلاف المخطوط، لأنّ وجود اسم عربي على المخطوط يكون حتما سببا في رفضه من قبل دور النشر الفرنسية. يضاف إلى ذلك أزمة التلقي القرائي، والتي يتنبّأ بها المؤلّف من خلال الحلم الذي رآه؛ راحت المرأة ذات السيقان البيضاء تهزأ بالرواية، وتتعجّب من غلاء سعرها، ترى أنّ هذا الكتاب لا يستحق هذا الثمن، فهو أغلى من قطعة لحم خروف، ومن حبة إجاص، وعيبه الأكبر عدم احتوائه على صور. ما يعني أنّ مقياس الإبداع الأساس بالنسبة إلى المؤسّسة الأدبية الغربية هو إرضاء فضول المتلقي الغربي بما يوجّه إليه من صور غريبة تبعث الدهشة والمتعة لديه، ولا يهم حياة الشعوب ومآسيها، أي الوظيفة الإمتاعية للأدب، فضلا عن كون مثل هذه المنشورات السبيل إلى ذيوع صيت الكاتب. فكان رد فعل المؤلّف رفض نشر المخطوط وسحبه، وفي هذا انتقاد لعملية التلقي الخاضعة لشروط الاستهلاك، وكذا ذوق القراء. ومن ثم راح المؤلّف يتخيّل رواية "سأهبك غزالة" مرفقة بشريط إشهاري كتب عليه:

"سأهبك غزالة"

ممنوع على أصحاب السيقان البيضاء الذين يحبون شرائح لحم الخروف.

ممنوع على الذين يحيطون بفرانسوا دوليزيو.

ممنوع على الذين يرون الغزالة على أنّها مجرّد حيوان من ذوات الأربع قوائم.

ممنوع على الأصدقاء الذين يظنون أنّ هذه الشخصية أو تلك لا وظيفة لها في القصة، وأنّ قصة الغزلان لا تهم شعبا يكافح ضد المستعمر.

(...)

فالكاتب لا يهمّه سوى شخصياته."[xx]

تلخّص هذه المواقف أزمة الإبداع التي عانى منها جيل الروّاد من الكتاب الجزائريين الذين كتبوا بالفرنسية، والمثقّفين المغتربين الذين دفعتهم الظروف إلى الهجرة بحثا عن جو للكتابة والإبداع الحر، لكن خابت آمالهم بسبب أزمة الكتابة الخاضعة للتسويق، والنشر المشروط بأسلوب وموضوع معيّن، فضلا عن أزمة المقروئية. وهو ما يشي بوعي الكاتب بظروف الكتابة والتأليف. فهو يؤمن بحق اختيار جمهوره، ويلتزم مثل باقي الأدباء الجزائريين في مرحلة الثورة التحريرية الجزائرية بقضايا بلده وشعبه، ويتجاوز الوظيفة الإمتاعية للأدب. كما ينبئ موقف الراوي بمهمة المبدع ووظيفة الإبداع في توجيه مسار التلقي، وتحفير المتلقي الذي يصبح طرفا في اللعبة الإبداعية، ويقع على عاتقه عبء الفهم والتأويل، وهو السبيل إلى تأكيد التجربة الإبداعية وعرض أيديولوجية المبدع ورؤاه. من هنا اشتغل نص "سأهبك غزالة" على طريقة كتابة الرواية نفسها. بلغة شعرية، وجمل قصيرة مركّزة يظهر فيها إسهام المرجعية الفرنسية في تكوينه، وتأثير الشعراء الفرنسيين؛ لويس أراغون L. Aragon، وبول فرلين P.Verlaine وشارل بودلير Baudlaire ، وسارترSartre، وبوردي Bourdet، وهو ما يصرّح به الكاتب نفسه على لسان الراوي.

يكشف خطاب المؤلّف عن إبداعه عن تجربة الكتابة، ويعرض إشكاليات الكتابة باللغة الفرنسية بالنسبة إلى الكتاب المغاربة، تأتي على رأسها إشكالية الهوية، ثم إشكالية النشر، وإشكالية التلقي في هذا يقول مالك حداد: "تقف اللغة الفرنسية حاجزا بيني وبين وطني أكثر من حاجز البحر الأبيض المتوسّط، وحتى لو كتبت باللغة العربية فإنّ الأمية ستقف حاجزا بيني وبين قارئي."[xxi] لهذا السبب توجّه المؤلّف بمخطوطه إلى جمهور فرنسي، لكن آراء هذا الأخير حول المخطوط صدمته، وأثّرت علىموقفه فتراجع عن نشر مخطوطه. فكانت النتيجة اختيار الذات المبدعة للصمت، فقد "أراد المؤلّف أن يجيب. تزاحمت الكلمات على لسانه. كان بحاجة إلى آلاف القنوات، وآلاف الأفواه، بحاجة إلى كل مطر العالم ليبدّد هذه السحب، ويفرغ هذه الأفكار، ويصفّي هذه الروايات العجيبة التي لن تكتب أبدا."[xxii] استنفذت الكلمات معانيها بسبب النفي داخل لغة الآخر. ومن هنا راح المؤلّف يبحث عن لغة تتجاوز التعبير إلى الخلق، لغة قادرة على دمج الهويات، والاختلافات العرقية والدينية؛ وبهذا يتّضح رهان الكاتب على دور الكتابة في تخفيف بؤر التوتّر، وإحلال السلام، حيث يبرز الراوي الدور الذي يضطلع به الفن في القضاء على الصراع بين بني البشر، يقول: "لو كنت شاعرا، يا إلاهي، ماذا لو كنت شاعرا؟ كنت سأكتب حالة الفقد والتعاسة. ولتحوّل هذا الحزن الكثيف إلى قصيدة. ولسعيت للاعتقاد أنّ الشعر لايزال بإمكانه إنقاذ العالم." يعزف الراوي على الوتر الإنساني المشترك بين البشر، فيكون التعويل على الفن لإنقاذ الإنسانية. يتواصل الراوي مع Gerda جيردا صديقته الألمانية بالموسيقى لأنها لا تعرف اللغة الفرنسية ولا العربية، لقد وجد في الموسيقى بوصفها لغة عالمية إنسانية وسيطا للتواصل مع الآخرين، ذلك أنّه لا يؤمن بالكلمات، فهي عاجزة عن التعبير. ربما أراد أن يعطي معنى لوجوده عن طريق لغة متعالية، وأن يؤكّد ذاته عبر الإبداع، وأن يزرع الأمل في النفوس المظلمة.

نخلص إلى أنّ ما يشكّل تجربة الكتابة لدى مالك حداد هو تجربته المعيشة في المنفى، وانفتاحه على الثقافة الفرنسية، وهو ما ولّد لديه الوعي بالمنفى، ويظهر هذا من خلال موقف بطله، وسعيه لتخطي حاجز الغربة داخل اللغة.

[i]

[ii]

[iii] Le malheur en danger, La dernière impression, Le quai aux fleurs ne répond plus, etc.
[iv]Je t'offrirai une gazelle,.
[v]Je t'offrirai une gazelle,.
[vi]Je t'offrirai une gazelle,
[vii]Je t'offrirai une gazelle,.
[viii]Je t'offrirai une gazelle,
[ix]Je t'offrirai une gazelle,
[x]Je t'offrirai une gazelle,.
[xi]Je t'offrirai une gazelle,

.

.[xii]Je t'offrirai une gazelle
..[xii]Je t'offrirai une gazelle
..[xii]Je t'offrirai une gazelle,
[xii] Malek Haddad, Ecoute et je t'appelle précédé de : Les zéros tournent en rond
[xii]Je t'offrirai une gazelle.

.